طقوس التحوُّل إلى طائر لا اسم له

هي لا تعلم بأنَّكَ نصف بشري تتحول في الليل لطائر لا اسم له.

تطير لبيتها. تحلِّق فوقه كثيرًا، قبل أن تستقرَّ بهدوء على شبَّاك بيتها. تقترب من النافذة المفتوحة. لتلمحها من خلف الستارة الطائرة. كانت جالسة في إضاءة خافتة تشاهد فيلمًا، متكورة في جانب من كنبتها الصغيرة. تضمُّ ركبتيها أمام صدرها. عيناها غائبتان بعيدًا. تعرف أنها لا تتفرج حقًا.

البيت أمامك هادئ تمامًا، ومظلم. تعرف أنها وحيدة في تلك الليلة. تخبئ نفسك جيدًا، وأنت تمدُّ رأسَكَ الصغير للداخل محاولًا الثبات، وعدم إصدار أيِّ صوت. تطلعتْ حولها فجأة فتراجعتَ أنت للوراء. قامتْ من مكانها، واتجهتْ ناحية المطبخ.

تطير أنتَ من مكانِكَ، وتلفُّ للناحية الأخرى. تقفُ على شباك المطبخ الصغير؛ لتلمحها وهي تصنع كوبًا من الشاي، تنتظر غليان الماء، تقوم بصبِّه، تتجه للخارج ثانية، فتطير أنتَ مرةً أخرى عائدًا للشباك الخارجي.

كانتْ قد جلستْ، وأشعلتْ سيجارة. تنفثُ دخانها أمامها لتُغبش الرؤية أمام الفيلم، كأنَّه لا يعنيها حقًا. تمسك هاتفها. تراها تقلب فيه قليلًا قبل أن تضعه ثانية جانبها، تفكر في الدخول؛ لكنَّكَ لا تعلم ما وقعُ ذلك عليها. لن تعرفك. ربَّما لو نظرَتْ في عينيكَ الصغيرتين قليلًا لعرفتك؛ لكنَّها لن تفعل. ستفزعها فقط، ولن تتمكن من تهدئتها أو إخبارها بحقيقتك، فأنت كطائر لا تتكلم. لا صوت لك.

تُطفئ سيجارتها، تضع كوب الشاي الخالي أمامها وتغلق التليفزيون، تتجـه بهدوء نحو غرفتها البعيـدة. تظلُّ واقفًا مكانكَ قليلًا. قبل أن تطير راجعًا.

هي لا تعلم أنَّكَ تتحولُ ليلًا لطائر، لا اسم له.

ربَّما لاحظتْ ذلك. تخبرُكَ عن وجهك المرهق، ولونك الشاحب، شفتيك اللتين يغمق لونهما. تعلم أنك لا تنام؛ لكنها لا تدري ما السبب. لا أحد يدري سواك. كل ما تخافه وأنتَ في طريقكَ لبيتها أن يصطادك أحد الصبية العابثين.

تذهب من جديد في اليوم التالي؛ لتحلق فوق البيت، قبل أن تهبط لتحطَّ على الشباك الخارجي، الذي ترى من خلاله البيت كله.

كانـت تجلس بالداخل وحيدةً أيضًا في تلك الليلة. رأيتَها وخمنتَ أنَّها كانتْ تبكي، شعرتَ بقلبِكَ الصغير ينتفض، وشعرتَ بعجزِكَ عن التواجد معها. ستدخل لتمسح لها دموعها؛ لتأخذها في حضنك. لتكون معها كما ينبغي أنْ يكون. تزيح طرف الستارة؛ لتراها أوضح. تلتفتُ لتراك، تنتفض مكانها، تجفل أنتَ مكانكَ، وتطير بسرعة مبتعدًا. تراها من بعيد وهي تزيح الستارة، وتنظر في الفراغ. تمسحُ دموعها، وتعيد التطلع؛ لكنَّكَ ابتعْدتَ، خِفْتَ من أن تخيفها فابتعدت.

لم تحكـي لك ما حدث. وأنتَ لم تخبرها بأنَّـكَ تعلم أنَّها كانتْ تبكي. هي لا تعلم أنَّكَ ليلًا تتحول لطائر لا تعلم له اسمًا. كل ما تخشاهُ وأنتَ في طريقكَ لبيتها أن يتمَّ اصطيادُك، أن تخترقك رصاصةٌ لن تعلم ما مصدرُها. ستسمع صوتها سريعًا قبل أن يُظلمَ كلُّ شيء. ستختفي سريعًا، ولن يجَدك أحد؛ ربَّما سيبحث عنك الكثيرون. ستنتشر صورتَكَ على الفيس بوك مع مناشـداتٍ للبحث. هي سـتحزن، ولن تفهم ما سرّ الغياب. ستظنُّك قد تركتَها وذهبتَ دون وداع. لكنَّكَ هنا الآن تحاول أن تكون معها.

تقترب من مكانك اليومي، لا تلمح أي حركة بالداخل، لا تعلم أين ذهبتْ. تجلس مكانكَ منتظرًا. وكأنَّها تعلم بوجودِكَ، تعود سريعًا. تفتح باب البيت، تدخل دون أن تضيء أنوار البيت. تكتفي بالنور الخافتِ القادم من الطريق، تقوم بخلع ملابسها بسرعة.

تراها في ملابسـها الرقيقة المتبقية. تدخل لتستحم، تطير سريعًا لتقف على شباك الحمام الصغير المغلق، تسمع صوت المياه المنهمرة عليها، تشعر

بحركتها، تعود لمكانك، تخرج مبللة الشعر، مشرقة الوجه. تشعل سيجارة من ولاعتها البيضاء الصغيرة، وتقترب لتفتح الشباك قليلًا، تتجمد مكانكَ في الطـرف البعيد المظلم، تظلُّ هي متوقفة تنفث دخان سـيجارتها. تنظر للفراغ.

جميلة.. وجهها الهادئ المستكين، ونظرة عينيها التي تحوي العالم. تسحب نفسًا أخيرًا من السيجارة قبل أن تنتهي منها؛ لتلقيها أمامها. وقبل أن تدخل تشـعر بها تُلقي عليـكَ نظرة سريعة. كأنَّما كانتْ تعلـم بوجودِكَ؛ ربما قد اعتادتْ على رؤيتك، وظنَّتْ أنَّكَ تُعشش في شجرة قريبة.

في ذلك اليوم لم تتمكن من العودة لطبيعتك. وصلتَ بيتك، ودخلتَ من الشـباك المفتوح. لكنَّكَ ظللتَ كما أنـت. لا تعلم ماذا حدث؛ لكنكَ ظللـتَ هكذا. لم يخيفك الأمر، ولم تُصَـبْ بالرعب. لم تجد رغبة في البقاء حتى تعود بشريًّا، كنتَ تعلم كونك طائرًا هو ما يسمح لك بالعودة اليها مجددًا وأبدًا.

فكرت قليلًا، قبل أن تخرج من الشـباك ثانيـة مُتجهًا إليها من جديد. وصلتَ سريعًا. كان الشـبَّاك مُغلقًا، والنور مُطفأ بالداخل. جلستَ على حافة الشـبَّاك. تكورتَ حول نفسِـكَ قليلًا، استشعرتَ حضرة وجودها القريب قبل أنْ تُغمـضَ عينيكَ وتنام. في الصباح فتحتَ عينيك. محاولًا تذكر أين أنت. عندما وجدتَها بجانبِكَ مائلة بجسدها الصغير عبر النافذة المفتوحة، تتطلع إليك مبتسمة. ظللتَ مكانكَ لثوانٍ قبل أن تفرد جناحيك الصغيرين، وتطير مبتعدًا لا تعلم ماذا كان يجب أن تفعل.

تحدثتما كثيرًا عن فيلم birdman، أخبرتها بعشقِكَ له وأنَّكَ تراه تقريبًا كلَّ ليلـة، أخبرتها عن حلمك الدائـم بالطيران. تنظرُ لـكَ دون أنْ تردَّ، وتبتسم.

هي لا تعلم أنَّكَ طائر لا شبيه له ولم يسمه أحد. تطير في كلِّ ليلة لتقف على شبَّاك بيتها، وتظلُّ تتنقل من شباك للآخر. لتراها في كلِّ أنحاء البيت تمارس كلَّ شيء. تراها وتسمع صوتها، غناءها، ضحكها، همسها، بكاءها المخنوق، حديثها في الهاتف، ومع نفسها. تراها تأكل، وتخبز كعكًا صغيرًا له رائحة جميلة. ترقص، وتجري، وتنزل على عجل لأماكن بعيدة تنشر فيها بعضًا من بهجتها. تعود لتغيَّر ملابسها، وتستحم. تراها تقف أمام المرآة، تلمُّ شعرها فوق رأسها، ثم تتركه منسدلًا فوق كتفيها.

وفي كلِّ يوم كانتْ تلمحُكَ على طرف الشـبَّاك الكبير. أو على شـبَّاك المطبخ، أو غرفة النوم. تعتاد على وجودِكَ ببطء، ترى طرف منقارِكَ الصغير فتعلـم أنَّكَ هنا، وتبتسـم. تتعمد إزاحة السـتارة قليلًا؛ لتصعد أنت على طـرف النافذة، وتخطو خطوةً للداخل، وتجلـس مكانَكَ. تحاولُ ألَّا تنظر لكَ مباشرة. ألا تشـعرَكَ بعلمها أنَّكَ موجـود معها. أنت موجود، وهي تعلم؛ لكنَّها تتعامل بتجاهل خفيّ. تترك لك مسـاحة للتواجد في عالمها؛ تحاول ألا تتجاوزها كي لا تغضبها، فتقرر أن تغلق الشبَّاك أمامَكَ.

كانتْ سعيدةً بوجودِكَ، تشعر باعتيادها عليك، أصبحت تقضي معها معظم اليوم، وعندما تتأخر تجدها تنتظرُك بالنافذة المفتوحة. تراك قادمًا، فتبتسـم وتدخل تاركـةً إيَّاكَ تأخذ مكانَكَ المعتـاد. ببطء تسربت لتصبح

تفصيلةً من تفاصيل يومها. تمارس معها كلَّ طقوسها بالبيت؛ أصبحتَ تحفظ أماكن الأشياء، مواعيد أكلها، وكتبها المفضلة، لحظات فرحها، واكتئابها، ألوان ملابسها، وطريقة ترتيبها لدولابها، جلوسها ليلًا بملابسها الداخلية الفاتنة. أصبحتَ رفيق روحها، وأصبحتْ دنياك. ببطء تترك نفسك لتغمُرَكَ أشياؤها. وتترك نفسها لتحتلَّ عالمك. أريحيَّة، وسكينة، بوح خفي.

بالأمس لم تغلق باب الحمام خلفها؛ فقط اكتفت بتركه نصف مغلقٍ. كنت بدأت في الدخول للصالة، تحطُّ فوق النجفة الكبيرة، أو على أطراف الستائر. تتركُكَ تفعل هذا دون أن تنظر ناحيتك مجددًا، ودون أن يربكها وجودُكَ.

رأيتَها تعود من الخارج، تخلع ملابسها وتتجه للحمام، دخلتَ سريعًا لتقف على طرف الباب العلويّ. تضطرب قليلًا، ترتعش، وتشعر بقلبِكَ ينتفض؛ لكنَّكَ اقتربْتَ بوجهك الضئيل من الداخل. رأيتها تتجه لتقف تحت الدشِّ، تفتح المياه، وترفع رأسها لأعلى. وجهها، رقبتها، كتفيها، صدرها، جسدها كله. المياه تنهمر عليها، وتتجمع أسفل منها عاكسة نور الحمام الخافت. أغلقت المياه، وتناولت المنشفة الكبيرة، وقامتْ بلفِّها حول جسدها الهادر؛ أسكرَكَ ما رأيتَ، لا تعلم إن كانتْ رأتْكَ أم لا، هل سمحَتْ لك برؤيتها هكذا، أم لم تفكر في هذا من الأساس.

حاولت الطيران والذهاب معها لحجرتها وهي تخرج؛ لكنَّكَ لم تتمكن. انتشيتَ، وارتويتَ، وغبتَ في سماوات لم تبلغها من قبل. ظللتَ مكانَكَ ناسيًا أنَّ لكَ جناحين يمكنهما الطيران؛ لأنَّك في تلك اللحظة لم تكن بحاجة

إليهما قطُّ. كنتَ بحاجةٍ لأنْ تدخل إليها، تتخلص من هيئة الطائر؛ لتنصهر معها في كيان واحد. تعيد تشكيل الأسطورة القديمة. الجسد الواحد الذي عوقب بالانفصال. والآن يعود من جديد جسدًا واحدًا، وروحًا واحدة، وقلبًا واحدًا، وعالمًا لا يحوي سواكما.

(يُقال بأنَّه إذا قامَ طائرٌ صغير لا اسم له بتقبيلِكَ أثناء نومك، دون أن يوقظك، فسوف تتمكن أنتَ أيضًا من أن تتحول لطائرٍ صغيرٍ لا اسم له متى أردتَ ذلك. الحكاية كلُّها تكمن في أنَّكَ لن تعرف بأنَّ باستطاعتِكَ التحول لطائر؛ فقط في وقتٍ مُحدد لن تدريه، ستجد نفسكَ تقوم بفرد جناحيكَ الصغيرين خلفكَ؛ لتطير).

في تلك الليلة ذهبتَ مُتأخرًا قليلًا، اقتربت من النافذة؛ لتجد الأنوار مطفأةً. كان الشبَّاك غير مغلق جيدًا؛ لا تعلم هل هي من تركته مفتوحًا لكَ لتدخل، أم أنها كانتْ تنتظرُكَ حتى نامتْ دون أن تغلق النافذة. توقفتَ على حافتِه بهدوء قبل أن تدخل دون أن تصدر صوتًا.

كان المكان جميلًا، مُرتبًا، وتفوح منه رائحة ورود. ظللتَ تتنقل ببطء حتى وصلتَ لباب حجرتها نصف المغلق، قلبكَ يكاد يخرج من مكانه، تسمع دقاته صاخبةً تخاف أن توقظها. فتحاول أن تهدأ وتلتقط أنفاسك. تدخل الحجرة ببطء شديد وهدوء، تلمحها نائمة في طرف الفراش. شعرها منساب حول رأسها، وأنفاسها منتظمة، هادئة. تهبط لتكون جانبها، تقترب

من وجهها الفاتن، تزيح بمنقارِكَ خصلة شـعرٍ، لتدنو منها أكثر، تشمُّها، وتسمع أنفاسها الخافتة. وبلمح البصر تخطف قبلةً من فمها الورديِّ الصغير، تجمد مكانَكَ بعدها حتى تتأكد من عدم استيقاظها.

تظلُّ مكانكَ قليلًا كابحًا نفسـك من جديد مـن أن تترك هيئة الطائر لتتحول لبشري ثانية، متطلعًا فيها، متمليًا في هالة بهائها، قبل أن تسحب نفسك للخارج دون صوت عائدًا من حيث أتيتَ.

لم تخبرْكَ بأمر الطائر. هي المعتادة على إخبارك بكلِّ شيء؛ ربما لا يشغل بالها، ولا تتذكره إلا في البيت. هي لا تعلم أنَّكَ أنتَ هو ذلك الطائر الذي لا اسم له.

أنتَ تعلم أنَّ الأمر سينتهي ذاتَ ليلةٍ وأنتَ متجهٌ لبيتها. سيتم صيدُك. ربَّما لأنَّكَ غريب الشـكل. سيتم ملاحظة خطِّ سيرِكَ كلَّ ليلة. وسيكون من السهل توقع مكان وجودكَ. رصاصة سريعة ستلقيكَ أرضًا. وسينتهي كلُّ شيء سريعًا.

سـتفتقدُكَ. دون أن تعلم أين اختفيتَ، سيكون من المؤلم لها أن يختفي معكَ طائرُها في نفس اليوم، ربَّما اختفاؤك سينسـيها اختفاء الطائر. وربَّما اختفاء الطائر سينسـيها اختفاءك، ربما سـتربط بينكما في خيالها، أنكما قد رحلتُما في ذات التوقيت، وتركتُماها وحيدةً. لن تربط، ولن تفكر في أنَّكَ هو الطائر.

ستنزل هي في اليوم التالي، ستُخفي آثار سهرها وحزنها بنظارتها الشمسيَّة

الكبيرة. ستبدأ شفتاها في الذبول والغمقة مثلك تمامًا. ستعبر الطريق دون أن تلحظ جثَّة الطائر الصغير القريبة من المنزل. لن تفزع لأنَّها لن تراك؛ لكنَّها إن اقتربتْ ودققتْ لرأتكَ، وعندها ستعرف أنَّكَ هو هذا الطائر، لكنها لن تفعل، لن تنظر، ولن تلحظ انتفاضتكَ الأخيرة على الأرض الباردة.

ستكمل سيرها وابتعادها. وعند خطِّ الأفق، ودون أن تلتفتَ وراءها، أو يلمحها أحد، ستفرد جناحيها لتطير بعيدًا.